هل كل تعلق بغير الله شرك؟

بقلم

عبد الكريم جاويش



مكتبة

المنهج العلمي

هل كل تعلق بغير الله شرك ؟

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

مكتبة

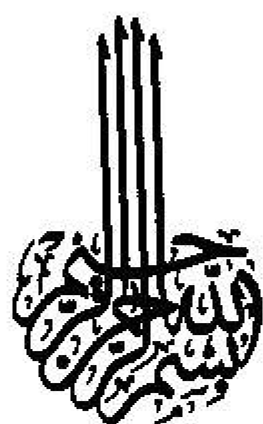
المنهج العلمي

بيروت - ص. ب ١١٣ / ٥٦٣٠ تلفاكس ٨٦٥٦٩٧

هل كل تعلق بغير الله شرك؟

بقلم
عبد الكريم جاويش

مكتبة
المنهج العلمي
بيروت - لبنان


بسم الله الرحمن الرحيم

هل كل تعلق بغير الله شرك

في أُمسيَّة رمضانية استأذنتني ابنتي في طرح سؤال، قالَتْ: إنَّه طالما شغل حيزاً كبيراً من تفكيرها وشعورها، وقد وجدْتُ ملامح الاهتمام على قسماتها الصافية البريئة، فقلتُ: دونك يا بنيتي إلى ما تريدين.

قالت: سؤالي موجز وبسيط: هل كل تعلُّق بغير الله شرك؟

قلت: رويدك، هذا كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل كثير.

قالت: أرجو أن تكون إجابتك مُفْصحة موضحة، لا تحتاج إلى مزيد.

قلت: يا ابنتي! إن فصل الخطاب الذي ترغبين قد

لا يكون في مقدوري، إذ فوق كل ذي علم عليم، وإنما أبثك ما استقر في قلبي، ودنت عليه ربي، ولك أن تستزيدي، وتبحثي، وتسألي من تثقين بعلمه وتقواه؛ ممن أحالك الله عليهم في كشف الغوامض من أهل الذكر، ولا تخلو البلاد من حجج لله على العباد في كل زمان ومكان، وقد عذر الله سبحانه وتعالى، وأبرأ ذمة من بحث واستزاد، وسأل أهل العلم حتى اطمأنّ قلبه، وهدأت هواجس نفسه؛ لأن الاجتهادات كثيرة، والمسلمين على سُبُل، ممّا أدى إليه علمهم، وكلٌّ يبتغي يقين دينه، ورضوانَ ربه، وبراءة ذمته.

أي بنيتي! إن البشر يخضعون في حياتهم لِقانون السببية، وهو أول سنن الله الكونية، التي عبرت عنها الآيات الكريمة بسنة الله ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الفتح: ٢٣]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وقد ضرب الله للناس مثلاً لتوضيح هذا القانون قصة (ذي القرنين) في سورة الكهف، إذ قال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الكهف: ٨٤] وبيَّن كيفية هذا التمكين وموجباتِهِ،

فقال: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٤ـ٨٥].

وفي الآية ٨٩ أكد ذلك ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٩] وفي الآية ٩٢ كرر التأكيد: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٩٢] وفي الآية ٩٥ ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ [الكهف: ٩٥] وفي الآية ١٠٢ أفصح القرآن عن قاعدة الشرك بقوله جلَّ وعلا: ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾ [الكهف: ١٠٢].

وفي ختام سورة الكهف تطالعنا الآيات الكريمة: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وفي دعوة الوفاق بين أهل الديانات السماوية أمر نبيَّه ﷺ أن يعلنها صريحة ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

أي بنيتي!

إني سأبسط لك القول بإيجاز غير مُخِلّ، فهل تصغين إليَّ بسمعك وبصرك وفؤادك؛ لأنها الطريق الأقوم لتحصيل العلم؟

قالت: ستجدني يا أبت إن شاء الله كما تحبُّ وترضاه لي.

التوسل بالأسباب الطبيعية

قلت: إن الناس إنّما يتوسّلون ويتوصّلون إلى تحقيق مآربهم، وبلوغِ حاجاتهم، عن طريق التعلق والتوسل بالأسباب والعلل، مع أنه لا يمكن أن يقال: إن الأسباب والعلل هي الله، بل هي غير الله قطعاً؛ لأنه وحده مسببُ الأسباب، وخالقُ العلل، وعلى هذه المقدمة تخرج النتيجة المنطقية: إن تعلقهم بالأسباب، وتوسلَهم بالعلل توسلٌ بغير الله وتعلقٌ بسواه.

في حين أن هذه التعلقات في المنطق القرآني لا تعدُّ شركاً، بل هي عينُ التوحيد وصميمُه كما طالعتنا بها قصة (ذي القرنين).

إن الإنسان ليعلم أن حياته في هذه الدنيا مشدودة إلى طعامه وشرابه، وبيته ورزقه وعمله، إذ أنها أسباب بقاء حياته. غاية الأمر أن المسلم لا يعتقد أن لهذه الأسباب والعلل أيُّ استقلال وانقطاع عن الإرادة الإلهية العليا، وأن تأثير هذه الأسباب يتبع لمشيئته سبحانه وتعالى، ولتقديره وتدبيره، وأن هذه الأسباب إنما هي حلقات في سلسلة قانون السببية التي تنتهي بالمآل إلى الله، فلا تخرج عن إطار التوحيد.

أما عندما يرى الإنسان لهذه الأسباب والعلل استقلالاً، ويعتقد بإمكان تأثيرها بمعزل عن الإرادة الإلهية، بلا تبعية لها، هنا فقط يصبح هذا الاعتقاد شركاً.

إن كوكب الأرض سفينة فضائية عملاقة، تحتضن مليارات البشر والمخلوقات الأخرى، التي ترى والتي لا ترى، تسير بأمر ربها الذي أحكم مدارها، وقوةَ دفعها، وزاوية ميلانها، وقدَّر فيها أقواتها في فصول أربعة بما يكفي روادها من طعام وشراب وهواء، لا تصبر هذه المخلوقات على فقده أكثر من دقيقتين.

ولازالت هذه السفينة ممسوكة في مدارها منذ ملايين

السنين، أمينة على ما تحمل مهما تضاعف عدد الرواد فيها، دون أن يحدث فيها خلل أو عطب، أو توقف لمولدات النور والحرارة والأكسجين الضرورية للحياة فيها.

تجوب الفضاء بأمر ربها، وقد جعلها لنا ذلولاً بقانون السببية، الذي أصبح من منهج العلوم لدينا. إن نفي هذا القانون، أو عدم اعتباره حاكماً للظواهر الطبيعية، هو سد لطريق العلم والتقدم والحضارة.

إن اعتقاد الملحد بالطبيعة ليس نفياً لله، وإنما تغيير لاسمه، مع الاحتفاظ بكل الصفات؛ من أجل الهروب من مستلزمات الإيمان التي تؤهله في الحقيقة للحياة الإنسانية الحضارية الراقية. إن الوجودية أو البوهيمية عودة لحياة الغاب البدائية، رجعية تحمل بوقاحة اسم التقدم.

إن القول بالمصادفة هو اعتقاد الفوضى التي تدمر الجهد الإنساني على طريق العلم والحضارة.

إن الاعتقاد بأن جميع الأسباب لا تملك استقلالاً ذاتياً في تأثيرها، بل هي مفتقرة إلى الله في وجودها وتأثيرها، هو الفارق بين الملحد والموحد.

التوسل بالأسباب غير الطبيعية

وأعود واكرر تلخيصاً لما سبق:

إن النظرة إلى الأسباب الطبيعية، والخضوع لقانون العِلِّيَّة على أن الأسباب والعلل غير مستقلة بذاتها عينُ التوحيد، ومع الاعتقاد باستقلالها عينُ الشرك.

وأما العلل غير الطبيعية، والتي اصطلح الغربيون على تسميتها (ميتافيزيك) أي: فوق العلوم الفيزيائية، فحكمها حكم العلل الطبيعية تماماً، وللإيضاح لابد من معالجة سؤالين:

س١ـ إذا اعتقد إنسان أن للظاهرة الواحدة سببين: سبباً طبيعياً، وآخر غير طبيعي، فإذا يئس من الأول، فلاذ بالثاني، فهل يعدُّ فعله شركاً أم لا ؟

س٢ـ إذا اعتقد إنسان أن لأحد الأولياء سلطة غيبية يخرق بها قوانين الأرض بإذن الله تعالى، فهل يعد هذا الاعتقاد اعتقاداً بألوهية هذا الوليّ ؟

أي بنيتي! ستتخرجين عن قريب طبيبة، تواسين

العليل، وتداوين المريض، وتساهمين في دفع الآلام عن الناس، فإذا جاءتك مريضة قد يئس الطب من دوائها، وحرت أنت كما حار الأطباء في أسباب شفائها، وفيما أنت تواسينها لئلاّ تستسلم لليأس القاتل، وتحاولين أن تستثيري الأمل في نفسها، لحظتِ اعتقادها الجازم بأن لبرئها سبيلين: أحدهما طبيعي، وهو الذي سلكته في عرض نفسها على الأطباء، وآخر غير طبيعي، أو لنقل: غيبي، وقد يئستِ أنت كيأسها هي في نجاعة الطريق الأول، أفتصدينها عن السبيل الثاني إن أرادت أن تتوسل به ؟ ولنقل بالتحديد: إنه سبيل يأخذ من المشكاة التي أخذ منها المسيح عليه السلام الإذن في المسح بيديه على المرضى فيشفون، فهل يعدّ اعتقادها هذا، وطلبها ذاك السبيل شركاً وخروجاً عن جادة التوحيد ؟

أي بنيتي!

إن الذي يعتقد أن الله الذي منح الأثر أو قوة التأثير في المؤثِّر، وخلق الخاصية في الأدوية الطبيعية، أو جعل شفاء في

العسل، هو الذي منح المسيح عليه السلام قدرة يمكنه بها أن يبرىء المرضى بإذنه سبحانه، كيف يعدّ اعتقاده شركاً ؟

أي فرق بين الاعتقاد بأن الله وهب الإشراق للشمس، والإحراق للنار، وقدرة التلقيح للرياح، والشفاء في العسل، والموت في السُّمِّ، والرِّيّ في الماء، والشّبع في الطعام، وبين أنه سبحانه هو الذي أقدر أولياءه، كالمسيح عليه السلام وغيره، على إبراء المرضى، وشفاء الزَّمْنى وأولي العاهات، أو أنه أعطى أرواح أوليائه المباركة قدرة على التصرف في الأرض، وإغاثة الملهوف بإذنه ؟

وقد ورد في القرآن الكريم نماذج من إعطاء الله قدرة خاصة أو تأثيراً لعلل غير طبيعية، إليك بيانُها.

١ـ وصف الله تعالى عِجْل السامريّ بقوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨].

فلما رجع موسى عليه السلام من ميقات ربه، ورأى ما آلت إليه أحوال قومه، سأل السامريَّ عن كيفية عمله، وكيف قدر على ذلك، فأجابه: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: ٩٦].

فعلل عمله بأن التراب الذي أخذه من أثر الرسول علمَ أن قد أصبح له أثرٌ خاص، فتوسل به إلى ما أراد، ونجح في مسعاه، فعاد العجل ذا خوار.

٢ـ إن القرآن الكريم يصف كيفية بُرْء يعقوب عليه السلام مِمّا أصاب عينيه، ويقول حاكياً عن يوسف عليه السلام أنه قال: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣]، ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦].

٣ـ وكذلك ضربُ قتيل بني إسرائيل ببعض البقرة المذبوحة أعاد له الحياة، وأخبر عن قاتله.

فإذا اعتقد إنسان بأن الله خلق في التراب المأخوذ من أثر الرسول المعين أثراً خاصاً؛ بحيث إذا امتزج مع الحلّي يجعلها جسداً له خوار.

أو منح للقميص ذلك الأثر العجيب، أوجعل لحم البقرة المعينة سبباً لإعادة الحياة للموتى، هو الذي أعطى

لسائر العلل غير الطبيعية آثاراً خاصة، يستفيد منها الإنسان في ظروف معينة، فهل يعدّ مشركاً ؟

التوحيد والشرك

لابد أن أوضّح لك يا صغيرتي هذين المفهومين بشيء من التوسُّع، فصبراً، ولا تلقي بالاً للمتسرعين الذين يبغون تكفير المسلمين بأدنى شبهة تقوم في عقولهم.

إن النداء المشترك، أو لنقل: أصل الديانات التي صدرت من الحق جلَّ وعلا على لسان جميع الأنبياء والمرسلين إلى بني الإنسان، وكان جوهر رسالاتهم، ما أبان عنه قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ثم يصف القرآن التوحيد في العبادة بأنه الأصل المشترك بين جميع الشرائع السماوية إذ يقول: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

دوافع الشرك

وأحببت أن أشركها في الحديث، وأن أقيم معها محاورة لا محاضرة؛ فذلك أدعى للفهم، وأقومَ في الاعتقاد، فقلت: هل لك أن تبيني عما وقر في خَلَدك، وما بلغ إليه علمك عن أسباب الشرك ودوافعه في النفس الإنسانية ؟

قالت: لعل الدافع لعبادة غير الله هو وَهْمُ البُعْد المكاني؛ فالله كما تشير بعض الأحاديث، جالس على كرسيه فوق عرشه المستوي عليه فوق سبع سمٰواته، وكل سماء تبعد عن ما دونها مليارات السنين الضوئية بلغة علم الفلك الحديث.

إن تصور ابتعاد الله عن مخلوقاته يوحي بأن الله لا يعلم بأحوال عباده؛ إلا عن طريق ملائكة مختصين ترفع إليه الأقوال والأعمال بتقارير ترد إليه جل وعلا من كل فج عميق، فاتخذ الناس بحكم حالهم في حياتهم رسلاً خاصة بهم يستعطفونها، ويتذللون إليها، ويشكون لها بثهم وحزنهم وهمومهم وما يحزبهم من أمور، فتكون مع دوام

الصلة أقرب إليهم، وأرفق بأحوالهم. ومن أقرب إلى هذا المبتغى من أرواح القديسين والأولياء والصالحين الذين كانوا بشراً يحسون بعواطف البشر، ونوازع النفس الإنسانية بخيرها وشرها، ليكونوا سفراءهم إلى الله، وشفعاءهم لديه، وربما خَفُّوا إلى نجدتهم في الملمّات؛ بما جبلوا عليه من رحمة ونجدة وإغاثة للملهوف، وما اعتادوا عليه في حياتهم الدنيا من نصرة المظلومين، وكفكفة دموع المحزونين.

هكذا سولت لهم أنفسهم، وصورت لهم أوهامهم. من غير هدى ولا كتاب منير. والإنسان القاصر في فهمه، الناقص في علمه، إنما يحتاج إلى التشخيص؛ ليستعيض عن كلال عقله في التجريد الذي لن تبلغه إلا العقول الناضجة المدرَّبة على النظرات النافذة الثاقبة، فاستعاضوا عن التعقل بالتصور، ونحتوا تماثيل لتدلّ على المُثُل التي في خواطرهم، نصبوها بقربهم في بيوتهم ومعابدهم، يهرعون إليها كلما ألمّت بهم نازلة، أو رغبوا في كسب خير.

فشعرْتُ بفرحة غامرة تملأُ قلبي، وتسرّي عن نفسي، وتهز أعماقي، فقلت: حسبك يا بنيتي، وسأزيدك من هدي القرآن ما يثلج صدرك، ويولج برد اليقين إلى فؤادك.

لقد أبان القرآن الكريم أن القِسْمَ الأكبر من عرب الجاهلية كانوا على دين إبراهيم عليه السلام، فلم يكونوا ملحدين لا يعترفون بالله تعالى، بل كانوا به مقرِّين، وبخالقيته ورازقيته وربوبيته معترفين ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزمر: ٣٨]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]، ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

ولكن منطقهم الخاص المتردّي أوهمهم أن هذه الأصنام وسائط مشروعة، يقبلها الله طالما أدّى إليها اجتهادهم وحسن نواياهم؛ بالتقرُّب بها إليه، فقالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣]، فكان شركُهم

من فكرة التقرُّب من الله بعبادة الواسطة التي ستقوم هي بعد رضاها عنهم بذلك التقرُّب المزعوم، إنهم وضعوا الله بمعزل عن أنفسهم، فلم يجدوا الصلة بينهم وبينه في قلوبهم، وأقاموا الصلات بأوثانهم بديلاً بكل ما تتضمنه من عبادة وحبّ وتقديس، فأوجدوا صلة لم يأمر الله بها، وواسطة لم يأذن بها، وكان هذا دأب الأمم من قبلهم.

لذلك ردّ الله هذا المنهج العبادي على لسان إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧].

ولقد أبطل الله تعالى هذه التصورات كلّها لأنها قائمة على فكرة البعد المكاني، لا على سمو المكانة، بآيات كثيرة بيّن فيها أنه سبحانه وتعالى أقربُ إلى عباده من كل قريب، وأنه معهم أينما كانوا، يسمع سرهم ونجواهم وعلانيتهم، وأنه محيط بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، فلا حاجة إلى اتخاذ تلك الآلهة المصطنعة، ولا داعي لعبادتها؛ لتقوم بمهامّ متوهَّمة لإيصال مطالبهم إلى الله، وتزكيهم عنده، فالله يعلم بها جميعاً. قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [قٓ: ١٦] ودعاهم إلى رفع أكف

الضراعة، والسؤال إليه مباشرة ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٢٩]، وقال: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة: ٧]، وقال: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد: ٤].

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٣].

وبأمثال هذه الآيات يُبْطل القرآن دوافعَ الوثنية والشرك.

رفعت رأسها إليّ، وقد لمحت في عينيها آثار حيرة، ولحظت على شفتيها تمتمة خفية، فقلت مبادراً: لعل هاجساً ألمَّ بك، تريدين أن تستوضحي عنه، قالت: نعم، فقلت مشجعاً: هلمّي، قالت: لقد علق في خاطري من حديثك القريب أن الله ربما أعطى أرواح أوليائه الطاهرة

قدرة على التصرف في الكون، وإغاثة الملهوف بإذنه، وهذا ما عليه اعتقاد كثير من الناس؛ لذا هم يتزاحمون حول أضرحة الأولياء، طالبين هذا العونَ، الذي أذن لهم به أو يقصدون الأحياء منهم بغية الانتفاع من هذا التصرف الذي أعطي إليهم، فإذا أغضينا قليلاً عن فكرة التشخيص بمحسوس، واستبعدناها من هذا الحوار، وبقيت عقيدة الجاهلية كما هي على التجريد، لا على التشخيص بالمحسوسات، فهل يستقيم الاعتقاد ؟

قلت: هل لك أن تطرحي صيغة أوضح لهذا السؤال ؟قالت: ما أظن أنك تريد أن تقول: إن الله فوض تدبير ملكه إلى وكلاء عنه من صغار الآلهة، وأنا أعلم أنك طالما عبت جمود فكر فلاسفة اليونان عندما أقروا مثل هذا المفهوم، وتشنجت عقولُهم عنده، ولكن الخيط الأبلج من فجر الحق لم يستبنْ لي في هذا الموضوع كما كنت تريد وترمي إليه.

قلت: على رِسْلِكِ؛ فإن الموطن دقيق يحار فيه الفهم لمن أخذ عن عقله، ويجد الهدى من استنطق القرآن بقلب

سليم، فنطق له، فانتبهي وألقي السمع لقولي، وتجردي عن كل مفهوم سبق.

إن للكون حكومة قائمة بالله تعالى لها من النفوذ والقوة والسلطة والجند ما لا يعلمه إلا الله تعالى، ولها من المدبرات والمرسلات والنازعات والملقيات والسابحات، بهم يجري الله أقداره، وينصر عباده، ويدير ملكه، هكذا اقتضت حكمته، هو قيُّومهم وخالقُهم، وهو الغنيُّ عنهم، وما أمْرُهُ إلاَّ واحدةٌ كلمحٍ بالبصرِ أو هو أقربُ، وما العبد الصالح وموسى - عليهما السلام -، وفتاه، ومن عنده علم من الكتاب، وما سليمان وما سخر له، وما الهدهد والحمامة، وعنكبوت الغار، وطير أبابيل، إلا من جند هذه الحكومة الإلهية المختلطة؛ من أصناف الملائكة والجن والإنس وسائر المخلوقات ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧]، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

ولكن لا تظني يا بنيتي أن هذه الحكومة الكونية كحكومات الأرض، لا يعلم رئيسُها من أمورها إلا ما تُبديه

أجهزتها له، فتخفي عنه ما تريد، وتُظهر له ما تريد، وتتصرف على هواها كما تشاء.

لقد انتقد القرآن الكريم فكرة تفويض أمر الكون إلى الآلهة الصغار أوالكبار، وأكد أن كل ما سوى الله مخلوقٌ له، مفتقر في وجوده إليه، مقهور تحت قدرته. وقد بين الله في مواضع عديدة من كتابه أنه المدبر الوحيد لأمور الكون، وسيده، وخالقه، سبحانه وتعالى عما يشركون، فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٢-٣]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٤-٥].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فلا ند لله، ولا عبادة لأحد من دون الله، ولا إشراك في العبادة لأحد مع الله، بل العبادةُ لله وحده لا شريك له، له الحمد وحده، وبيده الخير وحده، وله الملك وحده، وهو على كل شيء قدير.

أي بنيتي!

إن الله سبحانه اصطفى من بعض خواص عباده رجالاً أعطاهم قدرات فوق قدرات البشر، يخرقون بها ما ألف الناس من قوانين المادة، ويتصرفون بما ينقض قوانين الأرض بما يعجز عنه الناس مجتمعين؛ ليلفتوا أنظارهم إلى أن وراء العالم المنظور عالماً آخر لا يُحَسُّ ولا يُجسُّ، ولا ترقى إليه الظنون، لا تسري عليه قوانين المادة التي تحكم عالم الإنسان، بل هو مسلط عليها، يبطل فعلها كأن لم تكن، ويتحكم فيها قهراً واستبداداً. هذا العالم الغيبي

تحكمه هو الآخر قوانين أرقى بأمر الله وحكمته، يُطلع عليها من يشاء من عباده، ويعطيه الإذن بالتصرف بها مع التحكم والتمكين ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] وما سخر الله سبحانه لسليمان ما سَخَّر ـ من مردة الجن والعفاريت والشياطين من كل بناء وغواص يعملون بين يديه بإذن ربه، وما أعطى وزيره من علم الكتاب ما يستطيع به نقل الأشياء العظيمة، ومنها عرش بلقيس، في أقل من طرفة عين، وكأنه خلق جديد، والريح تجري بأمر سليمان، فيرسلها عاصفة على من يشاء، ورخاء حيث يشاء ـ، إلا لعلمه أن سليمان قد بلغ من مقام العبودية لله مقام التمكين، فلن يُفتن بما أوتي، ولن يُلفته عن عبوديته لله شيء.

إن عباد الله المخلَصين الذين مكن الله لهم في الأرض، وآتاهم سلطة التصرف بالقوانين فوق الطبيعية؛ من عالم الروح، أو عالم الغيب، قد وصفهم لنا بقوله:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا

كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ٧٩ـ٨٠].

هذا منهاج أهل التمكين عندما يدخلهم الله في رحمته، ويمدُّهم بمدده.

انظري إلى سليمان عليه السلام كيف عرف الفضل لصاحب الفضل ـ وإنما يعرف الفضل ذووه ـ بعد إحضار العرش العظيم من اليمن إلى بيت المقدس في أقل من طرفة عين، لم يدّع لنفسه شيئاً، ولم يفارق عبوديته لله؛ لرسوخه في هذا المقام، فقال أمام الملأ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

إن سليمان عليه السلام، ومن عنده علم من الكتاب، كانا على يقين بأن الفاعل حقاً هو الله سبحانه، وإنما يُجري الأمر على أيدي من يختار من عباده؛ تصديقاً لهم فيما يدعون الناس إليه ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾

[المؤمنون: ٣٢].

إنه الربطُ على القلوب، فلا تنفذ إليها نزغات الشياطين، ولا أهواء النفوس.

إن كتابة الله من سننه، لا تقبل النسخ، فلا تُمحى ولا تتبدل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢].

هذا الروح ينقل إليهم وحي الله بالإذن بالتصرف متى وكيف، فلهم الصورة، وله الفعل.

انظري إلى قول الله تعالى: ﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ﴾ [الأعراف: ١١٧].

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧] لما رأى فعل السحرة ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

قال تعالى مخاطباً عيسى عليه السلام: ﴿ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠]

وفي قصة موسى والعبد الصالح عليهما السلام تبصرة وذكرى ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ﴾ ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ [الكهف: ٨٢].

وقال تعالى عن سلطة سليمان عليه السلام، والتمكين الذي أعطي له: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣] فالشكر عمل.

انظري إلى هذه الكلمات: (إذن ربه ـ أمرنا ـ يعملون له ما يشاء) هذه مشيئة سليمان عليه السلام في تصريف شؤون مملكته ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ [سبأ: ١٢] أي أن مشيئة الله هي التي تفعل ما تشاء: هي التي تأمر سليمان وتنهاه، إن مشيئة سليمان منطوية في مشيئة الله وأمره ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ [سبأ: ١٣].

ولا يخطرن على قلبك أن في الأمر جبرية كجبرية المادة الصماء، وإنما هو الالتزام والطاعة المبصرة، والعبودية المحضة. إنه عمل الشاكر لأنعم الله، المقرّ بفضله وحوله وقوته، المتبرىء من حول نفسه، يتبدى لك

ذلك من دعائه في وادي النمل بعد أن سمع تحذير النملة لأخواتها؛ من غير أن تقصد أن تُسمعه: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩].

أي بنيتي!

اسبري أغوار هذا الرجاء ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩] واسألي الله التوفيق والرضا.

إليك قول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام كما رواه القرآن الكريم ﴿ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ ﴾ [آل عمران: ٤٩] هذا فعله ﴿ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٤٩] هذا فعل الله ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٤٩] هذا فعل الله ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران: ٤٩] هذا فعله ظاهراً، وإنباء روح القدس له باطناً.

وجماع الأمر كله قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٧٨].

قالت: إنك تعلم ما في اعتقادات كثير من الناس، وعلى مستوى العالم الإسلامي كله، ما للأولياء من قدرة على إغاثة الملهوف، وإمداد طالبي المدد، وتفريج الكرب، ودفع الضر، واجتلاب النفع في الدنيا والآخرة، وما يفعله المتصوفة في حلقات الذكر من ضرب أنفسهم أو مريديهم بالسيوف والأشياش بعد طلب المدد من أولياء قد توفاهم الله منذ أمد بعيد، فيستجاب لطلبهم، ويمدون بما يدفع عنهم الضر والأذى، ولو فعله غيرهم لمات من ساعته. وهل تدخل الشفاعة في أمر كهذا أم تختلف ؟

قلت لها: قبل أن أخوض معك في حوار أو بيان لابد أن أضع لك قاعدة أساسية تنير لك الطريق، وتلقي الضوء على كثير مما يتشابه على الناس، ويمكنك أن تقيسي عليها كثيراً من المتشابهات والمستجدات، وهي جد بسيطة تتلخص في الآتي:

إن الأمور التي ليست في طاقة المخلوق لا يستغاث

ولا يدعى فيها إلا الله وحده لا شريك له، لا مَلَك مقرّب، ولا نبي مرسل، ولا ولي لله صالح.

قالت: اضرب لي مثلاً، قلت: رويدك لم أنته من كلامي بعد، ولك كل الحق في أن تسألي كما تشائين بعد إتمام الخطاب، ولكني سأورد إليك الأمثلة ليهدأ قلبك، ويستريح بالك.

إن هداية القلوب من شأن الله سبحانه، وهو لا يهدي إليه إلا من أناب، باحثاً عن الهدى.

قال تعالى لصفوته من خلقه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال أيضاً: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وإنما للعبد هداية الدلالة إلى الصراط المستقيم ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

علماً بأن البحث في الهداية شرحه يطول؛ لما أكثر فيه علماء الكلام، وأدخلوا فيه الجبر والاختيار، والقدر،

فلا تتسع له هذه العجالة، ولكن اذكري قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [الكهف: ١٣-١٤] فلابد أن يسبق هدى الله للقلوب سعي الإنسان نحو الهدى. وإليك مثلاً آخر: أرزاق الناس هو وحده الذي يبسطها من السماء والأرض بإنزال الغيث، وإنبات الأرض من كل زوج بهيج، وآيات القرآن حافلة بذلك، فارجعي إليها.

أما دون ذلك مما يكون للمخلوقات فيه فعل وتأثير، فتجوز فيه الاستعانة بتلك المخلوقات ولا حرج.

وأزيدك قاعدة أخرى: إن من يعتقد بالمستغاث به، سواء أكان حياً أم ميتاً، نوعاً من الألوهية تمكنه أن يتصرف في هذا الكون بقوة ذاتية بعيدة عن الإذن الإلهي، فهذا هو الشرك بعينه ﴿ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ١٦٥].

لذلك قرنت الآيات التي وصفت معجزات المسيح عليه السلام بالإذن الإلهي؛ لئلا يختلط الفهم على الناس كما حدث بعد ذلك ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي

فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠] انظري إلى تكرار بإذني.

قالت: أستطيع إذن أن أفهم من كلامك أن كل طلب للمستغيث من المستغاث به من المخلوقات ما هو من شأن الله وفعله يعد شركاً.

قلت: ليست هذه قاعدة على إطلاقها، بل المعيارُ هو إذن الله وإقدارُه للمخلوق على الفعل. فإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، هو من فعل الله سبحانه، وقد قصد الناس عيسى عليه السلام، وطلبوا منه ذلك، فلم ينههم، ولم يزجرهم؛ كما ينبغي أن يفعل لوكان طلبهم شركاً، بل أجابهم لما طلبوا، ولكن كان يبين لهم أنه عبد الله ورسوله، وأن ما يأتي به من آيات إنما هي من عند الله، وليست من عند نفسه، أو من حوله وقوته، وإنما جعلها الله مصدقة له في دعوته الناس ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢] فالمعيار هو إقدار الله سبحانه لأناس معينين في وقائع معينة، ولذا لم ينتفع أحد من

العميان من قميص يوسف عليه السلام بعد ذلك، ولم يحي لحم بقرة بني إسرائيل المذبوحة أحداً بعد تلك الواقعة، ولو أنها عوان صفراء فاقع لونها تسر الناظرين، ولم تفعل عصا موسى ما كانت تفعل بعد موسى عليه السلام، ولم يستطع أحد من بني إسرائيل أن يفجر بها عيون الماء، أو يفعل ما يشاء؛ مع أنها كانت عندهم.

واليوم أقدر الله الأطباء وهداهم لاكتشاف الأدوية لأمراض كانت مستعصية، فإذا قصدهم المرضى للاستشفاء لا يعد شركاً؛ لأن التداوي ممّا أمر به الشرع، وحض عليه، وأذن به.

إن الله سبحانه قضت حكمته أن يودع في هذه العقاقير والأعشاب القدرة على الشفاء؛ كما أودع تلك القدرة في العسل، وفي بعض آيات القرآن الكريم، فإذا أذن الله لبعض الصالحين أن يشفي المرضى بتلك الآيات، فحكمه حكم الطبيب الذي يستفيد من علمه بخاصية دواء معين لشفاء مرض معين ليس إلا، فلا الطبيب يشفي، ولا العقاقير، إلا بإذن الله سبحانه وتعالى، الذي أودع

الخاصية، وهدى الأطباء إليها؛ مع اختلاف أساليب هذه الهداية وطرق الانتفاع.

ولا فرق بين الأسباب الطبيعية المنظورة، والأسباب الروحية أو الغيبية غير المنظورة.

إن الطبيب له في الطب معرفة ... مادام في أجل الإنسان تأخير
حتى إذا ما دنت يوماً منيته ... حار الطبيب وخانته العقاقير

وما يفعله أهل الطريق من المتصوفة إنما يلفتون الأنظار به إلى عالم الغيب الذي أمرنا أن نؤمن به.

وقد أعلمني بعضهم أن ما يعاب عليهم نداؤهم عند ضرب أنفسهم بالسلاح أشياخهم من أولياء الله؛ مثل الرفاعي والكيلاني والبدوي وغيرهم؛ ممن شهد لهم الناس بالولاية والتقى، وكانوا عند أمر الشرع من الاستقامة، وهذا النداء بطلب المدد إنما يقصدون به إظهار أن الفعل إنما هو بالإذن الإلهي الذي أعطي لأشياخهم ومريديهم من بعدهم حتى وصل إليهم، ويتوسلون إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ

بِٱلْقِسْطِۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

بعد أخذ الإذن بالتصرف بهذه الآية مع الدعاء، من سلسلة أهل الطريق يداً بيد.

وكذلك يتوسلون بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] مع بعض الأدعية الخاصة المأثورة المتوارثة عن شيخ الطريقة عند دخولهم النيران العظيمة، أو وضع قطع الحديد المحمي حتى التوهج في أفواههم، أو لف سلاسل الحديد المتوهجة على أجسادهم ورقابهم، أو الوضوء بالزيت وهو يغلي، وكذلك يفعلون في شرب السم؛ كما فعل خالد بن الوليد كما يرويه الطبري في تاريخه ج ٢، ص ٥٦٧ مع عمرو بن عبد المسيح، وكان من قادة الحيرة يوم فتحها.

ولا يمكن لأحد أن يتصرف بهذه الآيات الكريمة إن لم تكن مصحوبة بالإذن الإلهي المتسلسل في أهل الطريق يداً بيد؛ مع أخذ العهد ألا يتصرف بها إلا في حال الضرورة القصوى.

وكما سمع سارية قائد جند المسلمين، وهو يقاتل بنهوند من أرض العجم، صوت عمر بن الخطاب يناديه: يا سارية الجبل الجبل! فصدع بالأمر، ولحق الجبل، ونجا هو وجنده من هزيمة انقلبت نصراً. فهل رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يخطب الجمعة من على منبر رسول الله ﷺ في المدينة المنورة أرض المعركة بالقمر الصناعي ؟ وهل سمع سارية صوت عمر بجهاز لا سلكي، أم بسبب غيبي ؟

ولقد كان لأهل مصر سُنَّةٌ جارية لفيضان نهر النيل مبنية على التجربة العملية في تقديم القرابين البشرية (عروس النيل) في كل عام لإله النيل المتصرف فيه حتى يفيض النهر على الضفاف، فيسقي زروعهم، وترتع مواشيهم. وفي السنة التي لا يقدمون فيها القربان لا يفيض النهر، ويكون عام مجاعة وبلاء.

ولقد هال عمرو بن العاص رضي الله عنه عندما فتح مصر هذا الاعتقاد وهذا الشرك، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب طالباً منه الرأي، كيف يجنب البلاد الشرك والمجاعة معاً ؟

ولقد جاءه كتاب عمر، وفيه بطاقة، في آخر موعد الفيضان، والنيل لم ترتفع مياهه، ولم تجر على الضفاف، وقد أيقن الناس بهلاك زروعهم ومواشيهم.

قرأ عمرو بن العاص رضي الله عنه الكتاب، وإذا فيه أمر من الخليفة أن يلقي بالبطاقة في النهر بدل القربان، وكان القربان في كل عام عروساً بكراً من أجمل فتيات مصر، يأخذونها من أبويها، ويرضونهما بالمال، ويجعلون عليها من الثياب والحلي أفضل ما يكون، ثم يلقونها في النيل، فيجري النهر على الضفاف، ويكون عام خير.

ففتح عمرو البطاقة، فإذا فيها: (من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر: أما بعد؛ فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله يجريك فإني أسأل الله الواحد القهار أن يجريك) فألقى ابن العاص البطاقة، ففاض النهر، وقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم بكتاب عمر. [كتاب الخلفاء للإمام السيوطي، خلافة عمر بن الخطاب].

فمدار الأمر يا بنيتي سواء أكان السبب طبيعياً أم غيبياً

على الإذن الإلهي. وكما قال الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] ولم أسمع أو أقرأ أن ولياً لله أتى بكرامة وادعى أنها من عند نفسه، وإنما تجري على يديه تأييداً له فيما يدعو الناس إلى الله سبحانه.

ولقد روى ابن حجر في كتابه [الإصابة في أخبار الصحابة ج ٢، ص ٩٩] عن خالد بن الوليد إبانِ معركة اليرموك أنه فقد قلنسوة من قماش كان يلبسها تحت لأمة حربه، فندب جماعة من الفرسان ممن حوله ليبحثوا عنها في ميدان المعركة، فلما رجعوا بلا جدوى ذهب بمن معه، وأطالوا البحث حتى وجدوها، فإذا هي قلنسوة خَلِقَةٌ بالية، فتعجبوا من تصميم خالد في البحث عنها، وهي أمشاج قماش لا تساوي شيئاً، فلما عرف خالد في وجوههم ذلك قال: اعتمر رسول الله ﷺ، فلما حلق رأسه ابتدر الناس شعره، وسبقتهم إلى شعرات من ناصيته ﷺ، فأخذتها ووضعتها في هذه القلنسوة، ومن ذلك اليوم ما خضت معركة، إلا كان النصر لي فيها، وما توجهت إلى وجهة إلا فتحها الله عليَّ.

أي بنيتي!

إن لله خواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فمن الأمكنة مكة والمدينة، وبيت المقدس، وعرفات، ومزدلفة، ومنى، والصفا والمروة، ومن الأزمنة ليلة القدر، والعشر الأوائل من ذي الحجة، وليلة الإسراء والمعراج.

وإن بين الله وخاصة عباده أسراراً قد يظهر بعضها في فلتات لسانهم، أو تصرفاتهم، بقصد وبغير قصد، ربما استنكرها غير العارف الفطن. فمنهم من يقسم على الله لتفعلن كذا، فيبر الله قسمه، ومنهم البراء بن مالك؛ كما روى مسلم في صحيحه «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره»، وفي رواية: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك».

وكان البراء إذا اشتدت الحرب بين المسلمين والكفار يقولون: يا براء أقسم على ربك، فيقسم على الله، فينهزم الكفار. فلما كانوا على قنطرة بالسوس ـ وقد اشتد الأمر

على المسلمين ـ قالوا: يا براء أقسم على ربك، فقال: يا رب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم، وجعلتني أول شهيد، فأبر الله قسمه، فانهزم العدو، واستشهد البراء بن مالك يومئذ. ويذكر ابن تيمية رحمه الله ذلك في كتابه [قاعدة جليلة، ص ٥٥، الطبعة الأولى] ويعقب: إن البراء قتل مئة رجل مبارزة غير من اشترك مع غيره في قتلهم. وفي حرب اليمامة حيث اعتصم مسيلمة مع أصحابه في حديقة له سميت حديقة الموت؛ لكثرة ما قتل عند أسوارها من قراء المسلمين وحفظة القرآن، ومن فرسانهم، فحُمِلَ البراء على ترس، وقذف به فوق سور الحديقة، فاقتحم الباب، وفتحه ليدخلها جيش المسلمين.

وروى ابن تيمية في صفحة ١٥٠ من الكتاب أن البراء بن مالك وغيره كان يقول: أقسمت عليك يا رب لتفعل كذا، فيبر الله قسمه.

لقد أطلت بك التجوال في أفق الكرامات، وما يهب الله من قدرات وعناية لمن يخلص دينه، ويسلم وجهه لله، وهومحسن، ولنعد إلى مفهوم جديد.

الشفاعة

وقد يكون من دوافع عبادة غير الله اعتقادُ أن فكرة الشفاعة التي يختص بها الله سبحانه يمكن أن تكون لأفراد استقلالاً عن إرادته سبحانه، أو يمكن أن يأذن بها لهم على التفويض.

لقد جعل الله الشفاعةَ في كتابه صراحة حقه وحده، فلا يمكن لأحد أن يشفع استبداداً بدون إذنه ورضاه في كل واقعة بذاتها. قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال عن الملائكة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، كما جعل الله تعالى غفران ذنوب عباده حقاً مختصاً به، لا يشاركه فيه أحد، ومن زعم أن المغفرة بيد غيره سبحانه

فقد أشرك. قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وكان يُظنُّ في الجاهلية، أو يُعتقَدُ أن الشفاعة نوع من النفوذ، أو التدخل في الشؤون الإلهية.

والشفاعة عموماً في عقائد الناس على نوعين:

الأول: التدخل والشفاعة بقوة النفوذ الذاتي، وهذا الضرب من الاعتقاد شِرْكٌ محضٌ؛ لأن المتدخل بقوة نفوذه الذاتي في الشؤون الإلهية يصبح إلهاً مستقلاً، ويصبح أي توجه إليه عبادة. قال تعالى عن السموات والأرض: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

الثاني: الشفاعة والتدبير والتدخل بإذنه سبحانه، وأمرِه ورضاه، وليس الاعتقاد بهذا شركاً؛ إذ القرآن يصرح بأن الملائكة تدبِّر الأمور الكونية بأمر الله: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات: ٥] وأنهم هم الذين يقبضون الأرواح، ويهلكون الأمم العاصية، إذ يقول على لسان الملائكة: ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠

عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ
مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ
لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ
قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ
رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾
وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ
يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي
أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ
وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ
شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ
بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا
أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا
جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ
مَنْضُودٍ﴾ [هود: ٧٠ـ٨٢] فإننا نلاحظ بجلاء أن الله هو الجاعل، ولكن المباشر للإهلاك هم الملائكة، فلا تصرف للملائكة بمعزل عن أمر الله وإذنه وإرادته. قال تعالى في وصف

الملائكة: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]، وقال: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

وقال في وصفهم والتعريف بهم: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

وقال على لسان الملائكة: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤].

فالاعتقاد السليم إذن أن لا تصرُّفَ ولا شفاعةَ للملائكة إلا بإذن الله ورضاه وأمره.

أما غير الملائكة فلا أحد يتوقع هذا النفوذ والتدخل والشفاعة إلا من الأولياء والصالحين؛ إما لجلب نفع، أو لدفع ضُرٍّ أخروي أو دنيوي.

أما من قال: إن استجلاب نفع الدنيا والآخرة، ودفع الضر فيهما، لا يجوز سؤالُ غير الله فيه، فقد صرح القرآن

بخلاف ذلك؛ إذ لا شك أن دعاء الرسول ﷺ لمؤدّي الزكاة موجبٌ للسّكن لهم، ورافع للاضطراب والقلق عنهم، إذ قال سبحانه: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] كما أن استغفار الرّسول ﷺ موجبٌ لغفران الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

كما أن دعاء يعقوب عليه السلام موجب لغفران ذنوب أبنائه؛ لقولهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ [يوسف: ٩٧] فأجابهم يعقوب عليه السلام: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٩٨] وهذا يبين جدوى استغفاره؛ إذ لولا ذلك لما وعدهم به.

وكذلك قول إبراهيم لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤].

وكذلك كان استغفار رسول الله ﷺ من متممات بيعة النساء، قال تعالى معلماً رسوله الكريم: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وكذلك أذن للمؤمنين أن يستغفروا لبعضهم، وأن

يطلبوا ذلك من إخوانهم. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

وأي نفع ترى أولى من النفع الأخروي؟ وأي دفع ضر أهم من دفع عذاب الله بدعاء نبيٍّ أو وليٍّ لله؟

قالت: هذا النفع الأخروي، فماذا عن الدُّنيوي؟

قلت: وأما النفع والضر الدنيويان، فقد بين القرآن وقوعهما. قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [البقرة: ٦٠] وكذلك طلبوا الطعام والرزق، فأنزل الله لهم المنَّ والسلوى.

وطلب الحواريّون المائدة من السماء من نبيهم، فأجاب اللهُ دعاءه بذلك. وقد طلب آل فرعون من موسى عليه السلام أن يرفع عنهم الرجز ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

أفلا يدل هذا كله يا صغيرتي على أن استدرار النفع، وطلب دفع الضر، في حياتنا الدنيا من غير الله جائز، على أن يكون مقروناً بالاعتقاد بأنه مخلوق يحبه الله،

فيستجيب لدعائه؛ تأييداً له في جمع القلوب على الله ؟.

ولقد بينت الآيات الكريمة بأن جميع المقربين إلى الله من رسل وأنبياء وأولياء لا يملكون إلا الدعاء، وإنما تكون الاستجابة من الله وحده. تأملي دعاء نوح لابنه، هل نفع أو أجدى ؟ وتأملي قوله تعالى لصفوة رسله في شأن المنافقين: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

ولو كان طلب النفع ودفع الضر بدعاء المخلوقين غير جائز لكان على أنبياء الله صلوات الله عليهم أن يردعوهم عن هذه الطلبات، وأن يوجهوهم إلى الله مباشرة؛ لكي يطلبوا منه، لا أن يسألوا أنبياءهم ذلك، وهم خلق الله، ولا شك أن لموسى وعيسى والأنبياء جميعاً صلوات الله عليهم، ومن بهم اقتدى، وعلى هديهم مشى من الصديقين والأولياء والصالحين دخلاً في جلب الخير، ودفع الضر، وجاهاً عند الله ومكرمة. وقد جاء في الكتاب الكريم ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] وقال عن المؤمنين ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقد جاء في

الحديث القدسي «مَنْ آذى لي وليًا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل ما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبصرُ به، ويدَه التي يبطشُ بها، ورجلَه التي يمشي بها، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه، ولئن استغاثني لأُغيثنَّه» رواه البخاري، رقاق ٣٨.

وصفوة القول: أن نفرق بين من يكون بالله، ومن يكون بنفسه. ومن يعمل بإذن الله، ومن يعمل بإذن نفسه، إذ كل مأذون من الله مؤيَّد.

نظرَتْ إليَّ بشيء من الاستحياء، وكأنها أرادت أن تخفي منهجها الصارم في البحث عن الحقيقة، أو لعلها أرادت أن تصرف عن كلماتها آثار الإحراج الذي يمكن أن تلحقه بي، ثم قالت: أبتي أستميحك عذراً إن عدتُ لتأكيد أنك قلت: إن الله ربما أعطى أرواح أوليائه التي فارقت الحياة الدنيا قدرة على التصرف في شؤوننا وشؤون الكون، ولم تتداول في ردّك إلا أمثلة من الأحياء، فهل تركّز لي البحث في هذه النقطة بالذات.

قلت: يا بُنيتي! ليس في البحث الجاد عن الحقيقة حرج، وإن كنت لا أعلم لقلت لك: لا أعلم، ولبحثت مثلك لأتعلم، وإنما أخرت جوابي عن هذه النقطة بالذات امتحاناً مني لصلابة منهجك في اعتقاد اليقين؛ إذ العقائد لا تؤخذ إلا عن يقين، والأمر عقيدة ودين، ستقفين به بين يدي رب العالمين. ولكن يا بُنيتي هل ترين أن الحياة والموت حدان للتوحيد والشرك؟

حد التوحيد والشرك

لقد أجاز العلماء الاستغاثةَ وطلبَ الدعاء لدفع الكرب والنوازل، ودفع المصائب، وقضاء الدين، والتماس الشفاء والرزق، وما إلى ذلك، من الأحياء، وعلى هذا انعقد إجماع المسلمين بلا خلاف؛ لتواتر الأدلة في ذلك.

ولكن حرم بعض المسلمين طلب هذه الأمور من الأموات، ولو كانوا أنبياء أو أولياء، واحتجوا على ذلك بالحديث الشريف: «إذا مات ابن آدم انقطع عملُه إلاَّ من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له» ويقولون: إن التوسُّل بدعاء بالأنبياء والأولياء

جائز في حال حياتهم، ويحرم بعد مماتهم، ويقول عالم نجد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في هذا الصدد: (وهذا جائز في الدنيا والآخرة؛ أن تأتي رجلاً صالحاً تقول له: ادعُ الله لي، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه في حياته. وأما بعد مماته، فحاشى وكلا أن يكونوا سألوا ذلك، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره، فكيف بدعاء نفسه؟) كشف الشبهات، طبع مصر ص ٧٠.

أي بنيتي! أعيريني أذناً واعية، وفؤاداً ثبتاً سباراً لما خلف ظواهر النصوص، وأنا أعبر بك هوّةُ الظنون إلى الشاطىء الأيمن بإذن الله.

أنت تعلمين بلا شك أن التعاون بين الناس أساس الحياة، وما التاريخ الإنساني إلا حصيلة الجهود البشرية المتكاملة في تحمل الأعباء، وتبادل العلوم والخبرات بين الناس.

والقرآنُ الكريم حافل بصور من استعانة الإنسان بأخيه الإنسان. قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، وقال حاكياً على لسان ذي القرنين في

طلبه العَونَ من الناس: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥].

إن للشرك والتوحيد معاييرَ خاصة، بها يمتاز أحدهما عن الآخر. والإسلام ـ وهو دين التوحيد ـ لم يترك تحديد تلك المعايير للناس، ليجتهد كلٌّ على هواه، بل كان جازماً صارماً في تحديد كل مفهوم بحد خاص؛ ليميز الخبيث من الطيب، ولم يذكر أن الموت والحياة حدان للتوحيد والشرك، بل جعل الاعتقاد باستقلال المستغاث بالإغاثة هو حد الشرك، والتمكين من الله في الإغاثة هو حد التوحيد؛ لذلك قال ذو القرنين مبيناً لهم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥].

وعلى هذا المنهج سار سليمان عليه السلام ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ [النمل: ٤٠] أجل لما رأى سليمان عليه السلام عرش بلقيس مستقراً أمامه، وقد انتقل من اليمن إلى بيت المقدس كلمح البصر، ورأى هذه القوى الخارقة التي ظهرت على يد مَنْ عنده علمٌ من الكتاب، قال: ﴿قَالَ هَٰذَا

﴿مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

نعم لقد نسب الفضل في هذا التمكين لله وحده، وعلم أنه ابتلاء بين حدَّي الكفر والإيمان، فقال موضحاً ومعلماً للملأ من قومه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٤٠].

أي بنيتي! إن هذه الحقيقة بذاتها سارية في الاستمداد، وجارية في الاستغاثة بالأرواح الخيرة العالمة الشاعرة حسب إخبار القرآن: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠] ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

رنت بطرفها إليَّ، وقالت: يا أبت! أنا لا أنكر حياة الأنبياء والأولياء في قبورهم، ولكن أريد أن أثبت أنهم منحوا القدرة على التصرف بعد الممات.

قلت: أي صغيرتي! هل تلاحظين أن الآيات القرآنية

تصفهم بأنهم في القبور، وقد حالت أطباق الثرى بينهم وبين التصرف والحركة ؟

قالت: لا بل تذكر الآيات أنهم عند ربهم في عالم الآخرة، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤ـ٥٥].

قلت: لقد وصف الله الملائكة بوصف العندية أيضاً، ومع ذلك لا ينكر تصرفهم بالأمور الكونية، وشؤون البشر، فالحظي بهذا المقام مفهوم المكانة، لا وهم البعد المكاني. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ [فصلت: ٣٨]، وقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وقال عن الذين قتلوا في المعارك في أول إسلامهم، ولم يسجدوا لله سجدة واحدة بعد، ولم يتعلموا من الإسلام شيئاً، أو أنهم أسلموا من قريب، ولم تتح لهم

المعارك المتلاحقة أن يسلكوا في الإسلام سلوك العلم والتربية، لقد وعد الله أنه سيتمُّ لهم سلوكهم وهدايتهم بعد مماتهم: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ـ٦]، وما قوله تعالى عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

إن هذه الآيات وأمثالها تبين أن الأرواح إذا ما فارقت أبدانها لا تفنى، وهناك أحاديث كثيرة صحيحة أوردها ابن قيم الجوزية في كتابه (الروح) يضيق المقام عن سردها، ويمكنك الرجوع إليها بعد قليل. تبين أن الأرواح ـ وخاصة أرواح الأولياء والشهداء والصالحين ـ تغدو وتروح وتتحرك في الكون بلا ممانعة ولا حرج، وهي تحيا حياة برزخية بدون هذا الجسد الترابي الإنساني، وهي تخاطب الملائكة وتلازمها وترافقها بدون أدنى حرج، ؛ لما بينهما من تجانسَ وأُلفة.

وأحاديث المعراج الكثيرةُ تبين أن الرسول ﷺ اجتمع بالأنبياء، وصلى بهم إماماً في المسجد الأقصى، وقد

اجتمع بهم في السماء بعد عروجه ﷺ، ودار بينه وبينهم أحاديث كثيرة، فارجعي إليها إن شئت.

وتلك الأرواح إذا ما فارقت أبدانها لا يمكن أن تصبح نِدًّا لله، وشريكاً له سبحانه، حتّى يحرم الاستعانة بها، وطلب النجدة منها، بل تبقى كما هي، وكأنها في الحياة الدنيا، وتبقى صفة العبودية لله لا تفارقها أبداً، وتشملها آيات العندية، وتبقى مخلوقة لله تعالى، مستمدة منه، وتعمل بأمره، وتحت سلطانه، وتبقى منطوية في قبضته، تحت قيّوميته وقهره ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٨] سواءٌ أكانوا ملائكة روحانيين بلا أجساد مادية، أم أرواحاً إنسانية فارقت أبدانها، أم عباداً في أجساد مادية إنسانية.

فالمستغيث بها لا يمكن أن يجعلها شريكاً لله، لا في الصفات، ولا في الأفعال، ولا في العبادة، وإنما يتعامل معها على أنها كائنات حية خيرة، تحب عمل الخير، وتسارع إليه، وقد ندبها الله لذلك. وإغاثة الملهوف، وإعانة المظلوم، ومساعدة المرضى، من عمل الخير.

ولو كانت حياة المستغاث به ومماته مؤثرة في الأمر،

فإنما يكون تأثيرها في جدوى هذه الاستغاثة، أو عدم جدواها، لا في تحديد مفهومي التوحيد والشرك.

والبحث في جدوى مثل هذه الاستغاثة أو عدم جدواها خارج عن موضوع الشرك والتوحيد يا بنيتي.

ومن العجب اعتبار التوسل والاستغاثة بالحيّ، والاستشفاع به، عينَ التوحيد. واعتبار الاستغاثة والاستشفاع به إذا مات بالنية ذاتها، والعقيدة ذاتها، عينَ الشرك، وفاعلها واجب الاستتابة، مستحقّ للقتل حدًّا؟

ولو اعترض على الاستغاثة بالميت بأنه عمل عبثي لا طائل تحته، ولا جدوى منه، وأنه تعلق بوهم، ورمي في غير سدد، أو أنه بدعة لم ترد في الشرع، لكان أولى.

قالت: فهل هو بدعةٌ وضلالة؟

قلت: لا يمكننا الحكم قبل تعريف البدعة؛ ليتحدد معناها الشرعي، ونرى مطابقة هذا العمل عليها.

البدعة: هي إدخال ما ليس من الدين في الدين، وفرعُها الإتيان بالعمل على أنه أمر ديني بنية التقرب الى الله.

فإذا أتى المستغيث بالعمل على أنه أمر ديني وارد في الشرع يكون بدعة.

أما إذا أتى به من عند نفسه دون أن ينسبه للدين، فلا يعدُّ بدعة، ولا إحداثاً في الدين ما ليس منه.

على أن موضوع البحث إنما هو في تحديد التوحيد والشرك، لا في كون العمل مفيداً أو غير مفيد، مثمراً أو لا طائل تحته، بدعة أو غير بدعة، فهذا خارج عن نطاق البحث ومناط التحقيق.

وعلى كل حال لا يمكن اعتبار الاستغاثة بالميت شركاً إذا لم يشركْ المستغيثُ المستغاثَ به في صفات الله وأفعاله، فيخرج بذلك عن توحيد الرّبوبية، أو يشركه في العبادة، فيخرج عن توحيد العبادة، سواء فعلها السلف الصالح، أم لم يفعلوها، إذ ليس كل ما لم يفعله السلف الصالح، وفعله الخلف، يعدُّ شركاً، فباب الاجتهاد الشرعي بشروطه مفتوح للجميع، وليس عمل السلف دائماً هو مقياس الصحة ـ حتى عند السلفيين أنفسهم ـ فقد جمع عمر بن الخطاب الصحابة في صلاة التراويح على

إمام واحد في عشرين ركعة، وهم أول من ينكر هذا على عمر رضي الله عنه وعلى الصحابة جميعهم، ويعدُّون إجماع الصحابة قد انعقد على بدعة وضلالة، فكيف يستقيم مثل هذا المنطق الاجتهادي في العقول، وكيف يجعل عالم نجد حجته في تكفير المسلمين أن أحداً من السلف لم يفعل هذا ؟ وهناك كثير من الاجتهادات خالف فيها الخلف السلف، وكانت حجة الخلف أقوى، فما أنكر أحد على أحد، ولا كفَّر بعضهم بعضاً.

وأعود لأقرر لك يا بُنيتي أن الميزان الشرعي لحدّي التوحيد والشرك هو:

الشرك: الاعتقادُ باستقلال المستغاث به في فعلِه وقدرتِه عن الله، وتقديمُ فروض العبادة والتقديس له، وتقديمُ القرابين وشعائرُ النسك له من دون الله؛ بغية التقرب إليه، ونيل رضاه.

والتوحيد: الاعتقاد بعدم الاستقلال في كل ما ذكر، مع حرمة تقديم الشعائر والمناسك والقرابين له، لنيل رضاه، أو بنية التقرب إليه، وإنما يجب الاعتقاد بأن الملائكة وأرواح

الصديقين والأولياء والصالحين وجميع الأنبياء، صلوات الله عليهم، هم ﴿عِبَادٌ مُّكۡرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ۝٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ۝٢٨ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

قالت: هذا حد الشرك، فبيِّن لي صور الشرك من واقع حياة الناس؛ لأكون على بينة من ربي، ومعي شاهد من كتاب الله أتلوه في مثل هذه الوقائع الحياتية.

قلت لها: إن صور الشرك كثيرة منها:

١ـ اتخاذ الأنداد لله وحبهم:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٦٥].

﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾ [سبأ: ٣٣].

٢ـ عبادة غير الله :

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [الأعراف: ٧٠].

﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢ـ٥٣].

٣ـ دعاء غير الله على جهة الاستقلال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

ولقد اتخذ المشركون أنداداً من دون الله في الحب والعبادة وطلب النصرة، معللين ذلك أنها تقربهم من الله، وتشفع لهم عنده، فطالبهم الله سبحانه أن يبيِّنوا مصدر عقيدتهم هذا، وعن أيٍّ من رسل الله أخذوها ؟ قال تعالى لهم: ﴿ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤] ولما عجزوا وصفتهم الآيات بالجهل المركَّب ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ ﴾ [الحج: ٧١].

ويدخل في حكم الكفر ادعاء الزوجة والولد، والتثليث، وتحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل، وعبادة روحانيات الكواكب وتعظيمها، والتقرب إليها بالذبح والنذور، والطواف حول الأضرحة بنية التقرب إلى الله؛ لأن الطواف عبادة، ومنسك من مناسك الحج، ولم يأذن الله به إلا حول الكعبة في المسجد الحرام فقط؛ لا عند قبر النبي ﷺ، ولا عند قبر وليّ، وكل الشعائر والمناسك وصور التقرب إلى الله في العبادات توقيفية لا يجتهد فيها، ولا يقاس عليها، وقد حرم الله ذلك على المؤمنين.

قالت ـ وهي فرحة وكأنها وضعت يدها على ضالتها ـ: لقد قلت إن طلب الشفاعة ممن أذن الله لهم ورضيهم شفعاء عنده لا تعتبر دعوة لغير الله سبحانه ؟

فهل هؤلاء العاكفون على الضرائح، المتمسحون بأحجازها، يبثونها همومهم، ويطلبون قضاء حوائجهم آناء الليل وأطراف النهار، هم على صراط مستقيم ؟!!

قلت: مهلاً، لابد أن أوضح لك معنى الشفاعة أولاً، ثم نصير إلى غيره.

معنى الشفاعة يا بنيتي آت من الشفع، وهو اجتماع اثنين على طلب واحد.

أي: طلب المستشفع من النبي أو الولي أن يضم دعاءه واستغفاره لدعاء المستشفع، واستغفاره، ورجائه، هذا شرط في الشفاعة، ولقد بينه الله تعالى في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

فاقتران الاستغفارين شرط لغفران الذنوب، لا أن يطلب المستشفع الشفاعة باللسان، وينصرف آمناً مطمئناً،

إلى أنه أوكل الأمر إلى محامٍ درب ذرب اللسان سيفوز له بالبراءة حقاً. ولقد ثبت بالأدلة القرآنية أن الملائكة والأنبياء والصالحين من عباد الله يشفعون، ولكن بشرطين: أن يكون الشافع والمشفوع له مرضيّين من الله في هذه الشفاعة.

قالت: إني أجد في قولك إجمالاً، فهل تزيدني إيضاحاً؟ قلت: ما أظن أن الأمر يخفى عليك، ولكن لك ما تشائين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[التوبة: ١٠٢].

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٦].

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٩].

إن هذه الآيات ـ وسواها كثير ـ تبين لك شروط الشفاعة، وهي الندم والتوبة، والاستغفار من المستشفع، مع الإيمان وعدم الإصرار والتكرار. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥ـ١٣٦].

ولا تقبل الشفاعة مع الشرك ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣].

قالت: وهل استغفار الأنبياء والمؤمنين للعصاة شفاعة ؟

قلت: إن لم يكن الدعاء بالمغفرة شفاعة، فماذا يكون، ولم يطلب ؟

ولم طلب أولاد يعقوب من أبيهم أن يستغفر لهم بعد فعلتهم تلك بيوسف عليه السلام ؟ ولم وعدهم أبوهم بذلك إلا لاعتقاده أن استغفاره شفاعة مرضية يغفر الله بها الذنوب ؟

أي بنيتي! إن الأوثان حجارة صماء منحوتة، لا عقول لها، ولا نفوس لها حتى تقوى على الدعاء لمن يرجوه منها، ولا هي مدركة لما يقدم لها من قرابين وفروض العبادة، وإنما السدنة هم المنتفعون والمروّجون، وفي كل دين يظهر أمثال هؤلاء السدنة ليعيشوا متطفلين على أرزاق أهل الغفلة، كل حسب طموحه، منهم من التزم الأضرحة يروج الحكايات، وينشر قصص الكرامات، وقضاء الحاجات؛ ليلتقط فتات ما تجود به أيدي النساء الجاهلات. ومنهم من يكتب التعاويذ والحجب،

ويستدرج المغفلات من النساء إلى خلوة لا يرضى بها إلا الشيطان، يبتز بها الأموال، وينهش الأعراض باسم جده الولي المتوفى من مئات السنين. ومنهم من هو أرفع حالاً؛ جمع قليلاً من التقوى إلى بعض العلم في بعض كتب التصوف والفقه، يجتمع عليه بسطاء المتدينين لنيل بركته ورضاه، وليستمعوا إلى المواعظ والقصص عن الكرامات، وخوارق العادات التي تنال بتربية الشيخ للمريد وتزكيته، ليقطع به المفازات المهلكة في السير والسلوك حتى يكشف له الحجاب في الخلوات، ويقال له: ها أنت وربك، ويتوسل للوصول إلى ذلك بالطاعة المطلقة، والإذعان التام لإرادة شيخه (ما أفلح مريد قال لشيخه: لِمَ) (على المريد أن يكون مع شيخه كالميت بين يدي الغاسل) (خطأ الشيخ خير من صواب المريد).

وأمثال هذه القواعد في السير والسلوك كثيرة تركز على هدف واحد هو تنازل المريد عن إرادته بطوعه ورضاه؛ تقرباً إلى الله في خدمته لشيخه، وسد كل منافذ العلم والرأي إلا من شيخه.

فإن كان المريد فقيراً فيلزم الأعتاب، ويخلص في الخدمة. وإن كان ذا مال فليطلق يد شيخه في ماله. ورأس الأدلة على ذلك عندهم موقف إسماعيل من أبيه إبراهيم عليهما السلام عندما أمر إبراهيم عليه السلام بذبحه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وقصة موسى مع الخضر كما جاءت في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٥-٦٩].

فقالوا: بالعلم اللدني المتوارث بين أشياخ الطريق، والطاعة العمياء المفروضة على الأتباع، ولم يلتفتوا إلى أن أحداث القصة ومدارها قائم على الوحي الإلهي المباشر، تلقاه العبد الصالح كما تلقاه موسى عليهما السلام، ولا مجال لقياس أي شيخ ومريده عليهما. وأما إطلاق يد الشيخ في أموال مريديه، فيستشهدون بالآية

الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [المجادلة: ١٢].

وظنوا أن الله فتح لهم باب الارتزاق بهذه الآية، ولن يغلق إلى يوم القيامة، وبغض النظر عما أجمع عليه من يقولون بوقوع النسخ في القرآن الكريم أن هذه الآية قد نسختها الآية التي أتت بعدها مباشرة، ولم يدم العمل بها إلا بضعة أيام على الأكثر؛ فإن الصدقات لم تكن تعطى إلى النبي ﷺ وإنما إلى فقراء المسلمين. وقد حرم الله ذلك على النبي ﷺ وآل بيته وذوي قرباه: بني هاشم، وبني عبد المطلب؛ لئلا يفتح السدنة هذا الباب لابتزاز أموال المسلمين بغير حق؛ بغلبة الهوى وقلة العلم.

قالت: إن الاستطراد وإن كان ضرورة نافعة في مثل هذا المقام، ولكن العودة إلى موضوع السؤال أولى، والعود أحمد.

قلت لها: إن استطرادي هذا يضع بين يديك أسباب انحطاط المسلمين، ويشير بأصبع الاتهام إلى السدنة

الذين يعملون السوء بجهالة أو بعلم، وإلى الذين يخلطون عملاً صالحاً وآخر سيئاً. ولا أنكر أن هناك ثلة من الأشياخ المخلصين لله، عُرفوا بالعبادة والتقوى، لازالوا ملتزمين طريق التصوف في الدعوة إلى الله في العصر الحاضر، واقتصروا في دعوتهم على منهج العبادة، وتقوقعوا عليه، وتحجرت أفكار مريديهم في هذا الأفق الضيق المنعزل عن الحياة والتأثير فيها، وتحريك المجتمعات نحو حياة أفضل فأعطوا صورة لا يقتدى بها، وفهماً للإسلام لا يقرُّون عليه.

ولنعد الآن إلى موضوع السؤال.

إن الأوثان ليست كالإنسان في رجاء الدعاء منها. أما الصالحون، ولو أنهم فارقوا حياتنا الدنيا، وتخلوا عن الجسد الترابي، بقوا أرواحاً طاهرة كالملائكة ومع الملائكة، قادرين على الدعاء، فلا مجال لقياسهم بالأوثان، ومن هنا رأى بعض العلماء أن الاستعانة بالأسباب الغيبية كالاستعانة بالأسباب الطبيعية، ولا فرق، فكما منح الله الأسباب الطبيعية القدرة على التأثير، وأذن

لنا بالاستعانة بها في حوائجنا، كذلك هو الذي منح الأسباب الغيبية القدرة على التأثير. والفارق هو أن الأولى محكومة بقوانين المادة، مسخرة للإنسان إذا علم هذه القوانين التي تنال بالبحث والاختبار حسب منهج العلوم المادية. أما الأسباب الغيبية فليس لنا فيها إلا الرجاء من الله؛ لأنها تعمل وفق إذنه ومشيئته، فليس لنا في تسخيرها حيلة، ولا تنال بوسيلة إلا بتعليم منه سبحانه وتعالى.

وكما قال العبد الصالح لموسى عليهما السلام: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢].

وما قالت الملائكة تعليماً لنا: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وفي سورة الكهف [قصة صاحب الجنتين وهو يحاور صاحبه] بيان وذكرى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥] معتمداً على الأسباب الطبيعية دون ربطها بالله خالقها الذي مكنه من حرثها

وسقيها وأنبتها له لينتفع بثمرها، فقال له صاحبه: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف: ٣٩] ولفت نظره إلى أن الرازق هو الله لا الطبيعة ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ [الكهف: ٤٠-٤٣].

أي بنيتي! إن أكثر العوام بقيامهم على الأضرحة، وطلبهم قضاء الحاجات من اصحابها، إنما يفعلون السوء بجهالة، فعلى العقلاء من أهل الإيمان أن يتوجهوا إليهم بالنصيحة كما قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] فلا ينبغي أن ينقلب الحوار إلى شجار، ولا التعليم إلى تكفير، قد تتشابه ظواهر بعض أفعالهم مع أفعال المشركين، ولكن تختلف النوايا والمقاصد والعقائد، فإذا سألت أحدهم: هل يعتقد أن هذا الولي هو شريك لله تعالى في ملكه؟ لاستنكر ذلك منك، واستعاذ بالله، ولو

قال له قائل: إن الطواف عبادة، وأنت بطوافك حول الضريح إنما تعبد هذا الولي، لهمَّ بضربه ورماه بالجهل، وربما استعدى عليه من حوله من الطائفين. فلابد أن يُهدى الناسُ بالرفق إلى الحق. قال تعالى لصفوة خلقه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وليس ما يؤلف القلوب كالرفق، وما تجرد داعية إلى الله، وأخلص له الدعوة؛ إلا ملأ الله قلبه بالرحمة، وزينه بالرفق؛ لتأتلف القلوب عليه، وتتجه العقول إليه.

قالت: لقد سبق في حديثك آنفاً أن أرواح الشهداء تحيا مع الملائكة، وتلازمها، فاذكر لي قول الله تعالى في ذلك.

قلت: لقد قرأته كثيراً، ولم تلحظي. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾
نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ
وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ
وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ
كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا
ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٥].

ألا ترين معي أن هذه الآيات هي منهج الدعاة المخلصين؟

أي صغيرتي!

ها أناذا قد أقمت لك الدليل، وأنرت لك السبيل، ووضعتك على المحجة البيضاء بفضل ربي، وإليك وصيتي انتفعي بها وانفعي:

تفكري دائماء في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧].

وقوله تعالى لنبينا ﷺ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

واعتبري بقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [الأنعام: ٩١] ولا تكوني ممن عناهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٨] وكوني منهم.

وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٤-٩٥].

واستيقني بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٣].

وأصيخي السمع بأعماقك لقوله تعالى: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [النساء: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: ٦٢].

وتدبّري فاتحة الكتاب، وآخر الحشر، وهذا مبلغ علمي من أهل الذكر، وفوق كل ذي علم عليم.

هداك الله يا بنيتي، وهدى بك لأحسن القولِ.

ربّنا هَبْ لنا من أزواجنا وذرّياتنا قُرّة أعيُن واجعلنا للمتّقين إماماً.

ربّنا اغفرْ لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاًّ للذين آمَنُوا ربّنا إنَّكَ رؤوف رحيم. وآتِ نبيَّنا الوسيلةَ والفضيلةَ والدرجة العليَّة، وابعَثْه المقامَ المحمودَ الذي وعدتَه، إنَّكَ لا تُخلفُ الميعاد، وصلِّ عليه وعلى آله صلاة ترضيك، ربّنا إنك سميع الدُّعاء.



الفهرس



